حكايات من القرآن

١٤

السيدة العابدة
مريم عليها السلام

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

بعدَ صَلاةِ العَصْرِ.. قَرَأَ المُصَلُّونَ في مَسْجِدِ سَيِّدنا بِلال.. خَتْمةَ القُرآنِ عن رُوحِ (أبي صالح).. ثم عادَ (الشَّيخُ حُسَيْن) مع ابنِه (أبي خالد) إلى البيتِ...

ولمَّا سَمِعَ الأولادُ صَوْتَ والِدِهم وجَدِّهِم هُرِعُوا لاسْتِقْبالهما... حيثُ كانُوا في شَوقٍ كَبِيرٍ للاسْتِماعِ إلى حِكاياتِ الجَدِّ...

وتحلَّقَ الجَمِيعُ حولَ الجَدِّ.. وراحُوا يَسْأَلُونه عن وَضْعِه الصِّحِّيِّ.. وعن ذِكْرياتِهِ ، وما إلى هُنالِكَ..

ثم دَخَلتْ (أمُّ خالد).. ، ولمَّا جلستْ معهم.. نظرتْ إلى زَوْجِها وقالتْ: الأولادُ بحاجةٍ إلى

نُزْهةٍ ما... وأنا وأنتَ والجَدُّ العزيزُ أيضاً...

وغَداً عطلةُ يومِ الشُّهَداءِ.. فماذا تَقُولُون..؟!

قَفَزتْ (بُشْرى) وقالتْ: آهٍ.. ما أَعْظَمَكِ يا أُمِّي..!!

وقال (طارقٌ) وهو يَضَعُ يَدَهُ على كَتِفِ والدِه: نريدُ أن نَقْضِيَ يوماً جَمِيلاً مع الجَدِّ ، أمامَ البحرِ...

أمَّا (خالدٌ) فقد كان يَرْتَمي في حضْنِ جَدِّه.. والجَدُّ يُمِرُّ يَدَهُ على رأسِ (خالد)...

وأحضرتِ الأمُّ بعضَ أنواعِ المَشْروباتِ الباردةِ.. وقَدَّمَتْها لهم...

وأخيراً ، تَمَّ الاتِّفاقُ على الذَّهابِ إلى شاطِئِ البحرِ...

قال الجَدُّ وهو يَنْظُرُ إلى (بُشْرى): مالكِ يا حَبِيْبتي.. كأنَّكِ تُرِيْدين أن تَقُولي شيئاً ما؟!

هَزَّتْ (بُشْرى) رأسَها قليلاً وقالتْ: أنا حَزِينةٌ وغاضبةٌ منكَ ومِنْ والدتي!!

فوقفَ الجَدُّ.. وسارَ نَحْوَها.. وهو يَقُولُ: ولِمَ ذلك؟ ومَنِ الذي أَزْعَجَكِ؟!

ثم قَبَّلَ الجَدُّ حَفِيْدَتَهُ.. وقال: نحنُ نُرِيدُ مُصَالَحَتَكِ.. فما هي شُرُوطُكِ؟

وراحتْ (بُشْرى) تُفَكِّر.. وتتحرَّكُ حَرَكاتٍ فيها نوعٌ من الدَّلالِ.. ثُمَّ قالتْ:

كلُّ القصصِ التي حَكَيْتُموها لنا لا تتكلَّم إلا عن الرِّجالِ.. فلماذا لَمْ تَحْكُوا لنا ولو حِكايةً واحِدةً عن النِّساءِ؟!

ثم أبدتْ غَضَبَها.. وقالتْ لأمِّها: أَلاَ يُوجَدُ امرأةٌ لها حِكاياتٌ جَمِيلةٌ..؟!

فقالَ الأبُ: مَعَكِ حقٌّ يا بُشْرى.. فهناك مئاتُ النِّساءِ اللائي صَنَعْنَ التَّاريخَ.. واللائي عِشْنَ

السُّلوكَ والأَخْلاقِيَّاتِ الفاضِلةَ.

وراح الجَدُّ يُدَلِّلُ حَفِيْدَتَهُ ، وَيحاولُ إضْحَاكَها.. ثم قال: وَعْدٌ.. وعَهْدٌ عليَّ أن أَحْكِيَ لكِ غداً أثناء نُزْهَتِنا أكثرَ مِنْ حِكايةٍ عَنِ النِّساء..!!

وفي صَبيحةِ يومِ العُطْلةِ.. رَكبُوا في السَّيَّارةِ.. وحَمَلُوا معهم الأغْراضَ اللاَّزمةَ ، ثم انْطَلَقُوا إلى مكانٍ من شاطِئِنا السُّوريِّ الجَمِيل...

وبعد ساعةٍ وَصَلُوا إلى منطقةِ رَأْسِ البَسِيطِ...

ولمَّا نَزَلُوا.. نَظَرَ الشَّيخُ حسينُ إلى تلكم المنطقة ، ثمَّ قالَ: ما أجملَ الجبالَ المُحِيطةَ برأسِ البسيطِ.. وما أروعَ الشَّاطئَ في هَذِه المنطقةِ.

ثم تنفَّسَ بِعُمْقٍ كأنَّه يُريدُ مَزِيداً من الهَواءِ العَلِيل يملأُ به رِئَتَيْهِ!!

وتابعَ القولَ: لو يَعْلَمُ العربُ والأجانبُ الجمالَ الطَّبِيعيَّ.. والجَوَّ الجَمِيلَ عندنا.. لَقَطَعُوا

المسافاتِ الشَّاسعةَ.. وتَحَمَّلُوا مصاعبَ السَّفَرِ.. ودَفَعُوا الأموالَ ، ليصلُوا إلى بلادِنا...

وهَكَذا مَضَتْ ساعتانِ من الزَّمَنِ.. والأولادُ يَلْعَبُونَ بالكُرَةِ مَعَ والِدِهم ووالدتِهِم على الرِّمَالِ النَّاعِمةِ ، وأمامَ البحرِ الهادِئ...

بَيْنَما كان الجَدُّ قد اسْتَلْقَى على ظَهْرِه.. وراحَ يُحَرِّكُ ذِرَاعَيْه ، ورِجْلَيْه حَرَكاتٍ خَفِيفةً تناسبُ وَضْعَه الصِّحِّيَّ وعُمره أيضاً...

وبعدَ تَنَاولِ الإفطارِ اصْطَحَبَهُم (أبو خالدٍ) إلى أحدِ الجِبالِ المُطِلَّة على البحرِ...

وفي الطَّريقِ راحَ الجَدُّ يَرْوِي لهم الحِكايةَ الرَّائِعةَ التَّاليةَ:

معَ الأُسْرةِ المُؤْمِنَةِ..

كانَ يا ما كانَ.. كان في قَدِيمِ الزَّمانِ أُسْرةٌ كَرِيمةٌ.. تُدعى (آل عِمْران)...

أمَّا الزَّوجُ (عمران) فكان رَجُلاً تقيّاً وَرِعاً، يخافُ اللهَ سُبْحانه وتعالى.. وأمَّا الزَّوجةُ فكانتِ امرأةً عابِدةً طائِعةً...

لكنَّ المُشْكِلةَ الرئيسةَ هي أنَّ الله جَلَّ جلالُه لم يَرْزُقْها الولدَ...

ومِنْ طَبِيعةِ الإنسانِ كما تَعْلَمُون يا أحبابي أنَّه يُحِبُّ في هذه الدُّنيا أن يُرْزَقَ بالأولاد.. ليربِّيهم.. ويَعْطِفَ عليهم.. ويُعاوِنُوه في شُؤُونِ الحياة.. ولكي يَحْمِلُوا اسْمَهُ واسْمَ عائِلته.. ويَمْلَؤُوا عليه البيتَ فرحاً وسُروراً.

فماذا تفعلُ امرأةُ عِمْرانَ إزاء تلك المُشْكِلةِ؟!

سَلَّمتْ أَمْرَها لله تعالى، فهي وكُلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ تعتقدُ أنَّ كُلَّ شيءٍ بيدِ اللهِ سُبْحانه وتعالى، وعندما يريدُ اللهُ أنْ يَرْزُقَ إنساناً ما ولداً كان ذلك حَتْماً، وإلا.. فإذا أرادَ سُبْحانه وتعالى أن

يَحْرِمَ إنساناً ما الولدَ... كان ذلك..

لكنَّها الأُمْنِيةُ.. فراحتْ تَرْفَعُ يَدَيْها إلى الله..

وتَتَوسَّلُ إليه ، وتسألُه بكلِّ خُشُوعٍ وتَذَلُّلٍ..

وذاتَ يومٍ خَطَر في بالها أمرٌ.. فقالتْ في نَفْسِها: عليَّ للهِ نَذْرٌ: إنْ رَزَقَني الولدَ.. فَسَأَضَعُه في بيتِ المَقْدِسِ يخدمُ المعبدَ المُقَدَّسَ!

ويستجيبُ الله سُبْحانه وتعالى طَلَبَها!

وكما تَعْلَمُون يا أحبابي ، فإنَّ الله لن يُخَيِّبَ دَعْوةَ مَنْ دَعاهُ.. فهو الكريمُ سُبْحانه وتعالى.

وذاتَ يومٍ رأتْ في الرُّؤيا مَنْ يقولُ لها: أَبْشِرِي يا أمَةَ اللهِ ، فإنَّه سيأتِيكِ غُلامٌ بإذنِ الله تعالى...

اسْتَيْقَظَتِ الزَّوجةُ وهي لا تكادُ تُصَدِّقُ..وصاحَتْ:

يا عِمْرانُ أَبْشِرْ بالغُلامِ!!

وفَرِحَ الزَّوجانِ فَرَحاً عظيماً.. وراحا يَنْتَظِرانِ المَوْلُودَ بفارغِ الصَّبْرِ.. وأحياناً يَحْلُمانِ بالاسم الذي سَيُطْلِقانِه عليه!!

ومرَّتِ الأيامُ.. وبَطْنُ زوجةِ عِمْرانِ يكبرُ حَسْبَ كِبَرِ الجَنينِ.. حتى إذا قاربَ الوَضْع تَذَكَّرتْ ما نَذَرَتْ للهِ ذاتِ يومٍ...

﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾

أرادَ (طارقٌ) أن يَسْتَفْسِر عن أمرٍ ما..

لكنَّ (الشَّيخَ حُسين) مُنْهَمِكٌ في روايةِ أَحْداثِ الحِكايةِ.. لذلك لم يَنْتَبِهْ إلى ما يُرِيدُه (طارقٌ) فَتَابعَ القولَ:

ويَسَّر اللهُ الوِلادةَ.. فلمَّا اسْتَفَاقَتْ زوجةُ عِمْران مِنْ آلام الوَضْع ، نَظَرتْ فرأتِ الجَنِينَ يتحرَّكُ..

فَتَمْتَمَتْ: الحمدُ للهِ لكَ يا رَبِّ.. أنتَ المنعمُ والمُتَفَضّلُ.. بيدكَ الخَيْرُ.. يا جابرَ الخواطِرِ، ومُقِيلَ العَثَراتِ يا كَرِيمُ...

ثم نَظَرتْ إلى المَوْلُودِ.. فرأتْ أمراً أَدْهَشَها.. إنَّه أُنْثَى وليس ذَكَراً!؟

يا إلهي! وكيف تخدُم الأُنْثَى بيتَ المَقْدِسِ؟

ونسيتْ أنَّ الله تعالى أعلمُ منها ومِنْ غيرها.. أليسَ هُو سُبْحانه الذي يَطَّلِعُ على كُلِّ شيء، ويعلمُ ما تحملُ مِنْ أُنْثَى وما تَضَعُ...

إذاً: هناكَ حِكمةٌ إلهيَّةٌ في ذلك..!!

ولمَّا دَخَلَ عليها زَوْجُها (عِمْرانُ).. فرحَ بالمَوْلُودةِ الرَّائعةِ وقال: وماذا سَنُسَمِّيها؟!

وحارا في أَمْرِهِما...

قالتْ (بُشْرى): ولماذا تِلْكُم الحَيْرةُ يا جدِّي، ألم يكنْ عندهم قاموسُ أسماءِ المَوَاليدِ؟!

ضَحِكَ الجَمِيعُ من حَرَكاتِها واسْتِفْساراتِها.

بينما تابَعَ الجَدُّ حِكايَتَهُ:

وأَخِيراً اتَّفقَا على تَسْمِيةِ الأُنْثى (مريم) ، وذلك من بابِ أنَّ مَعْنى (مريم) هو (العابِدةُ) التي تَتَعبَّدُ اللهَ ، ورَفَع (عِمْران) يَدَيْهِ إلى اللهِ وقال: يا رَبِّ أسألكَ أن تَجْعَلَ هذه الأُنْثَى عابدةً طائِعةً مُؤْمِنةً وَرِعةً...

ولمَّا تماثَلتْ زوجةُ عِمْران للشِّفاءِ من آلامِ الوِلادةِ.. أرادتْ أن تَفِيَ نذْرَها مع الله ، فَحَمَلَتْ وليدتَها (مريم) وانطلقتْ إلى بيتِ المَقْدِسِ.

ولمَّا وَصَلتْ إلى المعبدِ ، طَرَقَتِ البابَ ودَخَلتْ.. فرأتِ الرُّهْبانَ ، فقالتْ لهم:

منذُ فَتْرةٍ وَجِيزةٍ وضَعَتْ هذه الأنثى.. وكنتُ قد نَذَرْتُ لله إذا رَزَقَني الولدَ فَسَأَجْعَلُه خادِماً لهذا المَعْبَدِ المُقَدَّسِ..

هاكُم ابنتي (مريم).. خُذُوها.. وربُّوها على طاعةِ الله.. لتكبرَ.. وتُصْبِحَ خادمةً لبيته سُبْحانه وتعالى...

لكنْ كيف سيكونُ وَضْعُ (مريم) بين الرُّهْبانِ؟

هناك سَتَكُونُ الأُنْثَى الوحيدةَ.. والبقيةُ كُلُّهم ذُكُورٌ ، لذلك اختلفَ الرُّهْبانُ فيما بينهم.. حتى عَلَتْ أَصْواتُهم.. واقترحَ بعضُهم أن يُعِيْدُوها إلى أُمِّها!!

ويشاءُ اللهُ تعالى أن يكونَ منهم: زكريا عليه السَّلام ، وهو أحدُ أَقْرِبائها..!!

فأرادَ أن يُنْهِيَ المُشْكِلةَ ، فقال: دَعُوا لي (مريم) فأنا سَأَكْفَلُها.. ثمَّ أَخَذَها وَرَعَاها حتَّى إذا ما كبرتْ قليلاً بَنَى مَعْبداً مُنْعَزِلاً في بيتِ المَقْدِس.. فراحتْ تَعْبُد اللهَ ، وكان زكريَّا يَدْخُلُ عليها بين الحِينِ والآخَرِ...

قال (أبو خالدٍ): أَحْسَنْتَ يا والدي ، وبارك اللهُ فيكَ.. أتسمحُ لي أن أقرأَ الحِكايةَ من كِتابِ الله تعالى؟:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

سيّدةُ نِساءِ العَالَمِينَ

ولمَّا كبرتْ.. أَتَاها مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ ، بشَّرها بأنها سَتَحْمِلُ بالمسيح عِيْسى.. ليكونَ مُعْجِزةَ

اللهِ.. وتكونَ هي المَرْأةَ المُطَهَّرةَ التي اصْطَفاها اللهُ تعالى..

وبالفعلِ حَمَلَتْ (مَرْيَمُ) بإذنِ اللهِ دُونَ أن تَتَزَوَّجَ من أحدٍ..

فحزنتْ لهذا الأمرِ.. وتساءلتْ: ماذا يقولُ الناسُ عني؟!

لذلكَ اعْتَزَلَتِ النَّاسَ..

حتَّى إذا ما حانَ وقتُ الوَضْعِ.. ولدتْ عيسى عليه السَّلامُ.. فكانت آيةً للنَّاسِ، وكان ابنُها عليه السَّلامُ آيةً أيضاً... فسلامُ الله على (مريم) العابدةِ المؤمنةِ، وسلامُ الله على ابْنِها المسيح عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ...

وكادَ الأبُ والأمُّ أنْ يَصِلا قبل الجَدِّ والأولادِ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ.. فَالتفتَ الجَدُّ إلى حَفِيْدَتهِ (بُشْرى) وقالَ:

هل زالَ حُزْنُكِ يا حَفِيْدَتي.. فها نحنُ قد حَكَيْنا حِكايةَ المَرْأةِ المُؤْمنةِ(مريم)..؟

ضَحِكتْ (بُشْرى) وقالتْ: شُكْراً لك يا جَدِّي.. ولكنكَ وَعَدْتَنِي بأنكَ سَتَحْكِي لنا أكثرَ من حكايةٍ عن شَخْصِيَّاتٍ نِسائيةٍ..

أَجَلْ يا بُشْرى ـ أجابَ الجَدُّ ـ ولكن حتَّى نَسْتَرِيحَ على قِمَّةِ الجبلِ إن شاءَ اللهُ.. وتَمْتَمَ الجدّ:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ